

مَعَوِّقَاتُ الإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ

فِي الفِكرِ المَحْسُوبِ عَلَى الإِسْلَامِ

المهندس عدنان الرفاعي

.. الإِصْلَاحُ الدِّينِيُّ مُصْطَلَحٌ يَعْنِي - بِمَفْهُومِهِ العَام - تَقْوِيمَ الفِكرِ الدِّينِيِّ عَلَى مَعْيَارٍ مَا ... وَبِالتَّالِي مِنْ المُمَكَّنِ تَحْمِيلُ هَذَا المِصْطَلَحِ دَلَالَاتٍ مُتَنَاقِضَةً ، حَسَبَ المَعْيَارِ الَّذِي نَعْنِيهِ ... وَمَا نَعْنِيهِ بِالإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ ، بِالنِّسْبَةِ لِلْفِكرِ الإِسْلَامِيِّ ، هُوَ تَقْوِيمُ المَوْرُوثِ الدِّينِيِّ كَتَفْسِيرٍ لِدَلَالَاتِ النِّصِّ القُرْآنِيِّ ، وَكَأَحْكَامٍ وَاجْتِهَادَاتٍ مُسْتَنْبَطَةٍ مِنَ الرِّوَايَاتِ المَنْسُوبَةِ إِلَى الرِّسُولِ ﷺ ، عَلَى مَعْيَارٍ مُحَدَّدٍ هُوَ كِتَابُ اللّهِ تَعَالَى ..

.. فَالإِصْلَاحُ الدِّينِيُّ الَّذِي نَعْنِيهِ ، هُوَ العُودَةُ بِفِكرِنَا وَعَقِيدَتِنَا وَفِقْهِنَا ، إِلَى حَقِيقَةِ الدَّلَالَاتِ الَّتِي يَحْمِلُهَا القُرْآنُ الكَرِيمُ .. وَبِالتَّالِي هُوَ :

١ - اسْتِنْبَاطُ دَلَالَاتٍ جَدِيدَةٍ مِنَ النِّصِّ القُرْآنِيِّ غَفَلَ عَنْهَا السَّابِقُونَ ، أَوْ لَمْ تَسْمَحْ لَهُمْ ظُرُوفُهُمُ الحَضَارِيَّةُ بِرُؤْيَتِهَا وَاسْتِنْبَاطِهَا مِنْ كِتَابِ اللّهِ تَعَالَى ... أَي : هُوَ اسْتِنْبَاطُ الدَّلَالَاتِ الَّتِي يَحْمِلُهَا القُرْآنُ الكَرِيمُ لِعَصْرِنَا ، كَوْنِ القُرْآنِ الكَرِيمِ يَحْمِلُ دَلَالَاتٍ تُنَاسِبُ السُّوِّيَّةَ الحَضَارِيَّةَ لِكُلِّ عَصْرٍ مِنَ العُصُورِ ، دُونَ أَنْ تُنَاقِضَ الدَّلَالَاتِ الحَقِّ الَّتِي حَمَلَهَا لِلعُصُورِ السَّابِقَةِ .. سِوَاءَ مَا كَانَ ذَلِكَ عَلَى صَعِيدِ المَنْهَجِ ، أَمْ عَلَى صَعِيدِ المَعْجِزَةِ .. أَي : هُوَ رُؤْيَةُ الآيَاتِ الَّتِي يَحْمِلُهَا القُرْآنُ الكَرِيمُ لِعَصْرِنَا .. يَقُولُ تَعَالَى ..

(سُنِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ كَمْ يَكْفُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (فصلت : ٥٣) ..

٢ - فرزُ المفاهيم الخاطئة التي حُسِبَتْ على منهجِ الله تعالى ، ومنهجِ الله تعالى منها براء ، وهي المفاهيمُ المناقضةُ لما يحمله القرآن الكريمُ من دلالات .. سواءً كان ذلك في العقيدة ، أم في الفقه ، أم في تفسيرِ النصِّ القرآني ..

٣ - فرزُ الرواياتِ المنسوبةِ إلى الرسول ﷺ ، حتى في كُتُبِ الصحاح ، والتي تُناقضُ صريحَ القرآن الكريمِ وثوابتَ العقلِ والمنطق ، وعدمُ قبولِ أيِّ شرحٍ أو تأويلٍ لأيِّ روايةٍ ، ما لمَ تحمِلِ الصياغةُ اللغويةُ لهذهِ الروايةِ حيثياتِ هذا التأويلِ بشكلٍ صريحٍ ، دون أن نضيفَ إليها معاني من جيوبنا ..

٤ - كلُّ ذلك يتطلَّبُ وعياً وجُرأةً في التمييزِ بين النصِّ المُقدَّسِ الذي هو النصُّ القرآنيُّ من جهة ، وبين التاريخِ الذي يشملُ : الرواياتِ ، والتفاسيرِ ، والاجتهاداتِ ، من جهةٍ أُخرى ... فلا نجعلُ المُقدَّسَ تاريخاً ، ولا نجعلُ التاريخَ مُقدَّساً .. وهذا يتطلَّبُ منا أن نمتلكَ جُرأةَ الحقِّ في النظرِ إلى الرواياتِ المنسوبةِ إلى الرسول ﷺ على أنها تاريخٌ تحمِلُ من المُقدَّسِ بمقدارِ ما تتطابقُ به معَ كتابِ الله تعالى ..

.. هذا هو الإصلاحُ الدينيُّ الذي نعيه ، فما نعيه ليس تغييراً في شعائرِ العباداتِ الثابتة ، كما يتخيَّلُ جنودُ تخلفِ الفكرِ الدينيِّ وأدواته ... إنَّ ما نعيه : هو خروجٌ من ساحةِ التاريخِ الذي يُقدِّمُ منهجاً بديلاً عن منهجِ الله تعالى ، ودخولٌ في ساحةِ المنهجِ الحقِّ الذي يُريدهُ الله تعالى ..

.. أمَّا بالنسبةِ للفكرِ - بمفهوميهِ العامِ فهو : تفعيلُ طاقةِ الذاتِ لتعقُّلِ الظواهرِ التي يتفاعلُ معها الإنسانُ بثقافتهِ ، وبأدواتِ حياتهِ المختلفةِ .. ففكرُ الأمةِ هو آليَّةٌ تدبُّرها وتفاعُلها مع المعارفِ ، ومنظارتها إلى آفاقِ الحياةِ بشتَّى أشكالها ، وبالتالي هو المنهجُ الناظِمُ لطرقِ التعقُّلِ والإدراكِ في استنباطِ المعرفةِ ، وناظِمها في تفاعلها مع هذه المعارفِ ..

.. فالفكرُ هو خلاصةُ الثقافةِ والتجربةِ الحياتيةِ للإنسان ، والقوةُ الموجهةُ لتفاعلِ أبناءِ الأمةِ مع المعارفِ ، ولخلقِ الآلياتِ المعرفيةِ للنهوضِ الحضاريِّ ، بوجهيهِ الروحيِّ والماديِّ ..

.. والفكرُ ليس نموذجاً مُحدداً يتفاعلُ معه الإنسانُ - في كلِّ زمانٍ ومكانٍ - ككثابتٍ يأخذهُ بطبيعةِ ثابتةٍ .. إنه تفاعلٌ مُستمرٌّ لتعقُّلِ المادةِ الثقافيةِ التي بين يديِّ الإنسانِ وفي أفقِ رؤاهِ ، ولتعقُّلِ ماهيةِ الأدواتِ الحياتيةِ والحضاريةِ التي بين يديه .. كلُّ ذلك من مناظيرٍ تتطورُ تطوراً مُوازياً للتطورِ الفكريِّ الذي تُنتجُهُ الأمةُ ..

.. ولذلك نرى أن كلمةَ الفكرِ (وكذلك كلمةَ العقلِ) لم تُردا في كتابِ الله تعالى بالصيغةِ الاسميةِ ولا لو مرةً واحدةً ، وأن ما يردُ هو الصيغُ الفعليةُ ... فبمقدارِ ما يتمُّ تفعيلُ الذاتِ وتعقُّلُها في إنتاجِ الأسسِ المعرفيةِ البنّاءةِ ، بمقدارِ ما يتمُّ إنتاجُ الفكرِ ..

.. والمُفكرُ هو من يُبدعُ آفاقاً جديدةً ، تنتظمُ وفقها ثقافةُ الأمةِ ، لتنتقلَ إلى نُقطةِ مستقبليةٍ على محورِ الزمنِ .. أي هو من يفتحُ آفاقاً جديدةً لنقلِ فكرِ الأمةِ وثقافتِها إلى الأمام .. فالمفكرُ ينتجُ الثقافةَ المستقبليةَ التي تتقدمُ الأمةُ إليها ..

.. من هنا .. علينا أن نُميّزَ بين من يُنتجُ الفكرَ فيبدعُ مناهجَ جديدةً في التفكيرِ ، تنقلُ من يسيرُ بها إلى السموِّ الفكريِّ والثقافيِّ ، وبين من يستهلكُ هذا الفكرَ ، فيجترهُ بشكلٍ مُستمرٍّ ليقبى في النقطةِ الفكريةِ ذاتها على محورِ الإبداعِ الفكريِّ .. أي علينا أن نُميّزَ بين الفكرِ كمنهجٍ إبداعيٍّ لآلياتِ التطوُّرِ ، وبين التقليدِ الذي لا يتجاوزُ التفاعلَ مع مرحلةٍ فكريةٍ مُحددةٍ مُنتجةٍ في مرحلةٍ زمنيةٍ مُحددةٍ ..

.. فمعيارُ الإنتاجِ الفكريِّ - بمفهومه العام - هو الإبداعُ المُبرهنُ ، والتجديدُ الهادفُ ، للسموِّ بثقافةِ الأمةِ وفكرِها ... وحينما يتوقفُ الإبداعُ والتجديدُ في الفكرِ ، فهذا يعني أن الأمةَ لا تُنتجُ الفكرَ ، وبالتالي لا تُفكرُ ..

.. لذلك نرى أن الإنتاجِ الفكريِّ يكون في مُعظمِ حالاته على خلافٍ مع ثقافةِ العامةِ وفكرِهِم ، وأنه يدفعُهُم - مع الزمنِ - للاتجاهِ بثقافتِهِم وفكرِهِم إليه ، من خلالِ حوارِهِم وتفاعلِهِم معه ..

.. هذا هو القانون التاريخي الذي يَنْظُمُ الحركة الثقافية والفكرية في التاريخ البشري .. ولكن .. حينما يكون فكرُ العامة ، وثقافتهم ، وما اعتادوا عليه كتقليد عن آباؤهم ، ناظماً للإنتاج الفكري عند الأمة ، فهذا يعني موت الإنتاج الفكري عند هذه الأمة ، واجترار الماضي ، وبالتالي خروجها من التاريخ كأمة فاعلة فيه ، ومُحرَّكة لقوانينه ..

.. ومَعَوِّقَاتُ الإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ فِي الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ ، نراها - خلال التاريخ - حجاباً مستوراً بين السمع والبصر والفؤاد ، وبين الدلالات الحق التي يحملها كتاب الله تعالى ، ونراها صنماً تبيخرُ عنده العقول ... فهذه المَعَوِّقَاتُ ، هي : إرادة وفكر وعمل بالجهة المعاكسة لاتجاه الإصلاح الديني ، لدرجة تُصَبِحُ فيها منهجاً مُقاوماً لكل مَنْ يُحاوِلُ - بشكلٍ مُجرَّدٍ - فهم كتاب الله تعالى والعودة إلى تعاليمه ..

.. بالنتيجة تجعل هذه المَعَوِّقَاتُ هوى النفس ، وعصبية المذهب والطائفة ، وصنم التاريخ ، منظاراً وحيداً لرؤية المنهج ، ومعياراً أخيراً لسبيل الإدراك ، وحدوداً مُحَرَّمَةً لآفاق الفكر .. وبالتالي تحلُّ الأنا مكان الحجّة والبرهان ، ويُقدَّمُ الحقُّ على أنه دعوة للفساد ، ويقدمُ الفسادُ ديناً يجبُ الحفاظُ عليه .. وهذا عين ما اتَّهَمَ به فرعونُ موسى عليه السلام ..

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ، وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) (غافر : ٢٦) ..

.. ولذلك عند رموز التخلف الفكري في الساحة الدينية ، الذين يحسبون أنفسهم أوصياء على دين الله تعالى ، ويحسبون منهج الله تعالى مُنجزاً من قِبَلِ أسلافهم ، يُكفِّرُ كلُّ يُخَالِفُ منهج الآباء حتى ولو عارض منهج الآباء صريحاً منهج الله تعالى .. يقول تعالى واصفاً هؤلاء ..

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا آفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (البقرة : ١٧٠) .. ويقول أيضاً ..

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا : حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (المائدة : ١٠٤) ..

.. وفي وصفٍ منهج هؤلاء ، الذي هو عينٌ منهج أسلافهم من معوّقي وصول الحقيقة في الرسالات السابقة يقول تعالى ..

(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ) (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) (الزخرف : ٢٢ - ٢٣) ..

.. وأمثال هؤلاء من السابقين ، قادهم غرورهم واتباعهم الأعمى إلى أن يتهموا أحد رسل الله تعالى ، بأنه يفترى على الله تعالى الكذب .. يقول تعالى واصفاً قولهم في ذلك ..

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) (المؤمنون : ٣٨) ..

.. وعلى الرغم من وصف القرآن الكريم لمنهج معوّقي وصول الحقيقة في الرسالات السابقة ، بتقديمهم للموروث التاريخي صنماً تعبيراً عليه الحقيقة ، وعلى الرغم من قراءتهم لهذا الوصف ، فإن هؤلاء يسلكون السبيل ذاته الذي سلكه أسلافهم من الأمم السابقة ..

(وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَبَيَّنَّا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ) (إبراهيم : ٤٥) ..

.. فهؤلاء المَعَوِّقُونَ فِكْرِيًّا والمَعَوِّقُونَ تَشْمِئُزُ قُلُوبُهُمْ حِينَ ذَكَرَ إِرجَاعَ الْفِكْرِ إِلَى معيارٍ واحدٍ هو كتابُ اللَّهِ تعالى ، فالمعاييرُ التي يريدونها ويستبشرون بها هي دون كتابِ اللَّهِ تعالى .. يقولُ تعالى ..

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (الزمر : ٤٥) ..

.. وفي مجالِ الفكرِ الإسلاميِّ ، يُمكننا أن نختزلَ مَعَوِّقَاتِ الإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ بالتالي :
.. المَعَوِّقُ الأوَّلُ هُوَ : تقدِيمُ الموروثِ التاريخي (بما في ذلك روايات الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ﷺ) على أَنَّهُ مُقَدَّسٌ فِي كُلِّ جِزِيَّةٍ مِنْ جِزِيَّاتِهِ .. فقد تمَّ اعتبارُ تصحيحِ السابقين للرواياتِ تصحيحاً أخيراً لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ... وهذا أساسُ كُلِّ كوارثِ الفكرِ الإسلاميِّ ، لأنَّهُ يُحَدِّدُ سَقْفَ الْفِكْرِ الإِسْلَامِيِّ للأجيالِ اللاحقة بما تحمله هذه الرواياتُ التي ثبتَ - عند العاقلين - مُخَالَفَةُ الكَثِيرِ منها لدلالاتِ كتابِ اللَّهِ تعالى ، وللعقلِ والمنطقِ ..

.. ولنأخذ مثلاً على ذلك من صحيح البخاري الحديث رقم : (٣٧٩) حسب ترقيم العالمية :

[[حَدَّثَنَا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتَلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا وَصَلَوْا صَلَاتِنَا وَاسْتَقْبَلُوا قِبَلَتَنَا وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا فَقَدْ حَرَمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ]] ..

.. ولنأخذ أيضاً الحديثَ التالي من صحيح مسلم رقم : (٣١) حسب ترقيم العالمية :

[[حَدَّثَنَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتَلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ]]

.. كُلُّ مَنْ يَمْلِكُ حَدًّا أَدْنَى مِنَ الْعَقْلِ وَالْمَنْطِقِ ، يُدْرِكُ مِنْ دَلَالَاتِ صِيَاغَةِ هَذِينَ الْحَدِيثَيْنِ أَنَّ دَمَ الْآخِرِ ، وَمَالَهُ ، يُحَرِّمُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَطْ حِينَمَا يُصَلِّي صَلَاتَهُمْ وَيَسْتَقْبِلُ قِبْلَتَهُمْ وَيَذْبَحُ ذَبِيحَتَهُمْ .. وَإِلَّا فِدْمُهُ مَهْدُورٌ ، وَمَالُهُ مُسْتَبَاحٌ ..

.. فَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى .. (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)
(البقرة : ٢٥٦) ، وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى .. (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يونس : ٩٩) .. وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى .. (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ)
(الكهف : ٢٩) .. كُلُّ ذَلِكَ لَا يَكْفِي مُعَوِّقِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ لِلْاعْتِرَافِ بِعَدَمِ صِحَّةِ هَذِهِ الرَّوَايَةِ .. بَلْ نَرَاهُمْ يُجَنِّدُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلدِّفَاعِ عَنْهَا بِتَأْوِيلَاتٍ لَا عِلَاقَةَ لَهَا بِصِيَاغَةِ نَصِّ هَذِهِ الرَّوَايَةِ لَا مِنْ قَرِيبٍ وَلَا مِنْ بَعِيدٍ ، وَيَتَّهَمُونَ كُلَّ مَنْ يُشَكِّكُ بِصِحَّةِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ بِالْكَفْرِ وَالزُّنْدَقَةِ ..

.. فَمِثْلُ هَذِهِ الرَّوَايَاتِ تَضَعُ الْفِكْرَ الْإِسْلَامِيَّ فِي خَنْدَقِ الْعِدَاءِ مَعَ كُلِّ مَا هُوَ آخِرٌ .. وَبِالتَّالِي تَدْفَعُ الْآخَرِينَ إِلَى كُرْهِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَتَدْعُو لِلْاِقْتِتَالِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْوَطَنِ الْوَاحِدِ إِنْ كَانَ فِيهِ مَوَاطِنُونَ غَيْرُ مُسْلِمِينَ .. مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ مِنْهَجَ الدَّعْوَةِ الَّذِي يُرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ :

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)
(النحل : ١٢٥) ..

.. مِنْ قِمَمِ الْإِعَاقَةِ الْفِكْرِيَّةِ أَنْ يُقَدَّمَ الْحَدِيثَانِ التَّالِيَانِ نِصُوصًا مُقَدَّسَةً يُكْفَرُ مَنْ يُحَاوَلُ التَّشْكِيكَ بِصِحَّتِهَا ..

صحيح مسلم .. حديث رقم : (٤٩٦٩) حسب ترقيم العالمية :

[[حَدَّثَنَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ هَذَا فَكَأَنَّكَ مِنَ النَّارِ]]

صحيح مسلم .. حديث رقم : (٤٩٧١) حسب ترقيم العالمية :

[[حَدَّثَنَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ فَيَغْفِرُهَا اللَّهُ لَهُمْ وَيَضَعُهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى]]

.. وَمَنْ قَمَمَ الإِعَاقَةَ الفِكْرِيَّةَ والدعوة إلى الفتنة والافتتال حتى بين أبناء الوطن الواحد ، والإساءة لخلق الرسول ﷺ ، أن يُقدِّم الحديث التالي نصًّا مُقدَّسًا يُكفِّرُ من يُحاول التشكيك بصحَّته ..

.. مسلم (١٥٢٨) :

[[حَدَّثَنَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَأَ تَبْدَأُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي الطَّرِيقِ فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَضِيقِهِ]]

.. وتقديم الموروث التاريخي نصوصاً مُقدَّسة يُكفِّرُ من يُحاول التشكيك بصحَّتها ، دفع إلى التعامي عن إدراك دلالات النصوص التي تحمل إساءة واضحة حتى لشخص الرسول ﷺ ولزوجاته رضي الله تعالى عنهن .. وفي الحديث التالي من **صحيح مسلم** ، رقم : (٤٩٧٥) حسب ترقيم العالمية ، أكبر دليل على ذلك ..

[[حَدَّثَنِي عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا كَانَ يُتَّهَمُ بِأَمٍّ وَلَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيٍّ إِذْهَبْ فَاضْرِبْ عُنُقَهُ فَاتَاهُ عَلِيٌّ فَإِذَا هُوَ فِي رَكِيٍّ يَتَبَرَّدُ فِيهَا فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ أَخْرُجْ فَنَاولَهُ يَدَهُ فَأَخْرَجَهُ فَإِذَا هُوَ مَجْبُوبٌ لَيْسَ لَهُ ذِكْرٌ فَكَفَّ عَلِيٌّ عَنْهُ ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ لَمَجْبُوبٌ مَا لَهُ ذِكْرٌ]] ..

.. وهناك مَعَوِّقٌ آخَرُ هُوَ : تَقْدِيمُ رَجَالَاتِ التَّارِيخِ كَأَصْنَامٍ لَا يَجُوزُ نَقْدُهُمْ ،
وبالتالي لَا يَجُوزُ نَقْدُ الرِّوَايَاتِ الَّتِي تَسْجُدُ عَنْهُمْ .. وَكُلُّ ذَلِكَ نَتِيجَةُ تَقْدِيسِ رَوَايَاتِ
التَّارِيخِ ، وَعَدَمِ قِرَاءَتِهَا قِرَاءَةً مُجَرَّدَةً عَنِ الْعَصَبِيَّاتِ الْمُسَبِّقَةِ الصَّنْعِ ..

.. وَلِنَنْظُرَ إِلَى الْحَدِيثِ التَّالِي فِي **صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ ، رَقْمٌ : (٤٥٣٥) حَسَبِ**
تَرْقِيمِ الْعَالَمِيَّةِ ، كَيْفَ يُقَدِّمُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ عَالِمًا بِصِيَاعَةِ النَّصِّ
الْقُرْآنِيِّ قَبْلَ نَزْوِلِهِ مِنَ السَّمَاءِ ، أَيُّ يُقَدِّمُهُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ مُطَّلِعًا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ
تَعَالَى قَبْلَ الرِّسُولِ ﷺ ..

[[حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَوْنٍ حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ عَنْ حُمَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ عُمَرُ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ : اجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُنَّ :
عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ، فَتَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ
.. [[

.. الرِّسُولُ ﷺ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِالنُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ وَأَحْكَامِهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِ مِنَ
السَّمَاءِ .. وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَمْ يَنْزَلْ عَلَى بَشَرٍ غَيْرِ الرِّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ .. وَيُؤَكِّدُ لَنَا
الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ - أَيْضًا - أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ مَخْلُوقٌ صِيَاعَةَ نَصِّ كَالنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ ، فَصِيَاعَةُ
النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ مَكْمُنٌ مَعْجَزَتِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى تَحْدَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ النَّصِّ
الْقُرْآنِيِّ فَكَيْفَ إِذَا اسْتَطَاعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنْ يَنْطِقَ بِحَرْفِيَّةِ
الآيَةِ الْكَرِيمَةِ : (**عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ**)
مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَاتَاتٍ تَأْتِيْنَ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثِيَابٍ وَأَبْكَارًا) (التَّحْرِيمُ : ٥) ، قَبْلَ
نَزْوِلِهَا مِنَ السَّمَاءِ ؟!!!! ..

.. مِنَ الْمُوَكَّدِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ لَمْ يَسْمَعْ أَبَدًا بِهَذِهِ الْقِصَّةِ ،
فَالنَّصُّ الْقُرْآنِيُّ مَعْجَزَةٌ لَا يَسْتَطِيعُ مَخْلُوقٌ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ ... وَبِالتَّالِي مِنَ الْمَسْتَحِيلِ أَنْ
يَسْتَطِيعَ صِيَاعَتَهُ ذَاتَهُ وَالنَّطْقَ بِهِ ذَاتَهُ قَبْلَ نَزْوِلِهِ مِنَ السَّمَاءِ ؟!!!! ..

.. المشكلة لا تكمنُ بمن افتروا هذا الحديثَ على عُمر بن الخطَّابِ رضي اللهُ تعالى عنه ، وعلى غيره من رواة هذا الحديث ، بمقدار ما تكمنُ بالذين طلقوا عقولهم وقدموا التاريخَ ورجالاته أصناماً لا يجوزُ نقدُها .. وبالتالي تكمنُ المشكلةُ بالذين يُصدِّقون ما تحمله هذه الأحاديثُ التي تُقدِّمُ القرآنَ الكريمَ نصّاً عادياً يستطيعُ البشرُ الإتيانَ بمثله ، وهم يحسبونَ أنفسهم خادمينَ لسنةِ الرسولِ ﷺ ولكتابه الكريم ، في الوقت الذي يجحدون فيه ويعرضون عن صريحِ عن دلالاتِ آياتِ الله تعالى .. فهؤلاء ينتمون إلى الذين يعينهم اللهُ تعالى بقوله :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) (الكهف : ١٠٣ - ١٠٥) ..

.. ولقائل أن يقول : ما علاقةُ تقديمِ بعضِ رجالات التاريخِ وبعضِ الرواياتِ عنهم ، كأصنامٍ لا يجوزُ نقدُها ، بمعوقاتِ الفكرِ الإسلامي ؟ ... نقول : تقديمُ ذلك كأصنامٍ فوقَ النقدِ هو - في النهاية - معوقٌ لمنعِ العقلِ المتنورِ من قراءةِ التاريخِ قراءةً مُجرّدةً ، ومعوقٌ لقراءةِ دلالاتِ القرآنِ الكريمِ قراءةً مُجرّدةً عن التاريخِ ... فجعلُ رجالاتِ التاريخِ أصناماً ، يعني جعلَ كلِّ ما يُنسبُ إليهم في كتبِ الرواياتِ التاريخيةِ معياراً حتى لإدراكِ دلالاتِ كتابِ الله تعالى .. وهنا مكمنُ هذا الجانبِ من الإعاقةِ الفكريةِ .. فكم آية كريمة لُبست تفسيراً يُخالفُ ظاهرَ دلالاتِها ، بناءً على رواية تاريخية لرجال سابقين .. فلو لم تُقدِّم هذه الروايةُ برجاليتها صنماً لا يجوزُ نقدُها ، لما كانت معياراً للدلالاتِ كتابِ الله تعالى ..

.. وتغييبُ العقلِ المُجرّدِ والمنهجِ العقليِّ في إدراكِ دلالاتِ النصِّ القرآني نتيجةً اعتبارِ بعضِ رواياتِ الأحاديثِ ، واجتهاداتِ السابقين ، معياراً وضابطاً لإدراكِ

دلالات آيات كتاب الله تعالى ، يُعمِّقُ الإعاقَةَ الفِكرِيَّةَ ، ويقتلُ روحَ الإِبداعِ عندَ الأُمَّةِ ..

.. فتحت شعار : السُّنَّةُ تُكَمِّلُ الْقُرْآنَ ، تَمَّ إِدْخَالُ الْكَثِيرِ مِنَ الرِّوَايَاتِ كِإِطَارٍ أَخِيرٍ لِدَلَالَاتِ بَعْضِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ .. مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَيْسَ نَاقِصًا وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكْمِيلٍ .. يَقُولُ تَعَالَى .. (وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل : ٨٩) .. وَيَبِينُ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا أَنَّ السُّنَّةَ

الشريفة مفسرة ومبينة لكتاب الله تعالى ، وليست مُكَمَّلَةٌ لَهُ .. يَقُولُ تَعَالَى .. (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل : ٤٤) ..

.. وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ شَكْوَى الرَّسُولِ ﷺ مِنْ تَفَاعُلِ قَوْمِهِ بِالْهَجْرَانِ مَعَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى .. وَذَلِكَ ضَمَّنَ سِيَاقَ قُرْآنِيٍّ يُصَوِّرُ حَدِيثًا يَحْدُثُ فِي الْآخِرَةِ ..

(وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) (الفرقان : ٢٧ - ٣٠) ..

.. فَالرَّسُولُ ﷺ سَوْفَ يَشْكُو - يَوْمَ الْقِيَامَةِ - مِنْ تَعَامُلِ قَوْمِهِ مَعَ دَلَالَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِالْهَجْرَانِ .. وَفِي ذَلِكَ بَيَانٌ لِعُمُقِ هَذَا الْمُعَوَّقِ الْفِكْرِيِّ ..

.. وَلِنَنْظُرَ إِلَى الْحَدِيثِ التَّالِيِ مِنْ **صحيح البخاري** ، **رقم : (٤٦٢٢) حسب ترقيم العالمية** ، كَيْفَ اسْتُخْدِمَ مُعَوَّقًا فِكْرِيًّا لِتَغْيِيبِ مَنْهَجِ التَّدْبِيرِ الْعَقْلِيِّ الْمَجْرَدِ فِي إِدْرَاكِ

دلالاتِ قولِهِ تعالى .. (**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سُبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**) (الحجر : ٨٧) ..

[**حَدَّثَنَا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ قُلْتَ لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ**] ..

.. حسبَ هذه الرواية ، قوله تعالى : (**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سُبْعًا مِنَ الْمَثَانِي**) يعني فاتحة الكتاب .. مع العلم أن فاتحة الكتاب سورةٌ معروفةٌ وليست نكرة ، والله تعالى يقول : (**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ السَّبْعَ الْمَثَانِي**) ، ولم يقل : (**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ السَّبْعَ الْمَثَانِي**) .. ومع العلم أن القرآن الكريم كله مثنائي .. يقول تعالى : (**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيًا**) (الزمر : ٢٣) .. ومع العلم أن فاتحة الكتاب جزءٌ من القرآن الكريم ، والله تعالى يقول : (**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سُبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**) ، ولم يقل : (**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ السَّبْعَ الْمَثَانِي فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ**) ..

.. وهكذا فوجودُ الروايةِ أدّى إلى تغييبِ العقلِ المُجرّدِ والمنهجِ العقليِّ في إدراكِ دلالاتِ هذه الآيةِ الكريمة ، وأدّى إلى وضعِ سقفٍ لتدبيرِ دلالاتِها لا يتجاوزُ نصَّ الرواية ، وهذا ممّا يعنيه قولُ الله تعالى ..

(**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**) (الفرقان :

٣٠) ..

.. وهناك مُعَوِّقٌ آخرٌ هو : غيابُ الموضوعيةِ حينَ مُواجهةِ المشاكلِ المُتعلّقةِ بقضايا الفكرِ الإسلاميِّ ، والبحثُ عن شتاعاتٍ لتعليقِ الأخطاءِ عليها ، وتحميلِ الآخرِ مسؤوليةَ الفشلِ بشكلٍ كاملٍ ، وكُلُّ ذلكٍ من خلالِ تقديمِ فرضيةِ المؤامرةِ كواقِعٍ

سِحْرِيٌّ لَا سَبِيلَ لِلْخَلَاصِ مِنْهُ ، وَمِنْ خِلَالِ اسْتِخْدَامِ مَبْدَأِ سَدِّ الذَّرَائِعِ كَوَسِيلَةٍ لِتَغْطِيَةِ الْحَقِيقَةِ ..

.. هَذَا الْمَعَوِّقُ يُشَكِّلُ غَطَاءً يَجْبُبُ الْبَصِيرَةَ عَنْ رُؤْيَا مَا تَجِبُ رُؤْيَتُهُ فِي سَطُورِ التَّارِيخِ ، وَفِي الْوَاقِعِ .. فَالْوَيْلُ يَنَالُ مَنْ يُشِيرُ إِلَى سَلْبِيَّاتِ الذَّاتِ خِلَالِ التَّارِيخِ ، مَهْمَا قَدَّمَ مِنَ الْأَدَلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ ..

.. وَمِنْ أَجْلِ عَدَمِ الْاعْتِرَافِ بِخَطَأِ بَعْضِ رِجَالِ التَّارِيخِ الَّذِينَ تَمَّ تَحْوِيلُهُمْ إِلَى أَسْنَامٍ ، يُتَهَمُ التَّارِيخُ بِأَنَّهُ مُزَوَّرٌ حِينَ الْاسْتِشْهَادِ بِجَزِيَّةٍ مِنْهُ ... وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ يَتَمُّ الْاسْتِشْهَادُ بِجَزِيَّةٍ مِنْ ذَاتِ التَّارِيخِ الَّذِي تَمَّ اتِّهَامُهُ بِالتَّزْوِيرِ مِنْ أَجْلِ إِثْبَاتِ عَصِيَّةٍ مَا ، مِنْ أَجْلِ تَقْدِيمِ رَجُلٍ مِنْ رِجَالِ التَّارِيخِ كَصَنْمٍ لَا يَجُوزُ الْاقْتِرَابُ مِنْهُ ..

.. فِغْيَابِ الْمَوْضُوعِيَّةِ ، وَتَغْيِيبِ الْعَقْلِ الْمَجْرَدِ وَالْمَنْهَجِ الْعَقْلِيِّ فِي الْبَحْثِ ، وَإِحْلَالِ الْعَصِيَّاتِ وَرَوَايَاتِ التَّارِيخِ مَكَانَ ذَلِكَ ، يُؤَدِّي إِلَى اتِّبَاعِ مَنْهَجِ الْبَحْثِ عَنِ النَّقِيضِ السَّلْبِيِّ لِمَوْضُوعِ الْبَحْثِ ، وَإِلَى تَقْدِيمِهِ بَدِيلًا وَحِيدًا لِإِظْهَارِ أَحْقِيَّةِ الرَّأْيِ الْفَاسِدِ ، وَلِعَدَمِ الْاعْتِرَافِ بِالْحَقِيقَةِ ..

.. فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ ، حِينَ التَّعَرُّضِ لِحَقُوقِ الْمَرْأَةِ الْمَشْرُوعَةِ ، وَأَتَهَا - فِي عَالَمِنَا الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ - تُفَرِّضُ عَلَيْهَا بَعْضُ الْأَحْكَامِ الْبَدَوِيَّةِ ، الَّتِي لَا عِلَاقَةَ لَهَا بِمَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى .. حِينَ ذَلِكَ .. يَتَمُّ تَقْدِيمُ الْخِلَاعَةِ الْغَرِيبَةِ بَدِيلًا وَحِيدًا ، مِنْ أَجْلِ إِظْهَارِ وَاقِعِ الْمَرْأَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمُسْلِمَةِ كَأَفْضَلِ بَدِيلٍ يُمَكِّنُ الْأَخْذَ بِهِ ، وَمِنْ أَجْلِ الْهَرُوبِ مِنْ بَحْثِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِمُحْتَأِ مَوْضُوعِيًّا مَعْيَارُهُ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى .. وَالنَّيْجَةُ - عِنْدَ مُعَوِّقِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ - هِيَ اتِّهَامُ الْبَاحِثِ عَنْ حَقِيقَةِ مَا يَحْمَلُهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِالتَّرْوِيحِ لِلْخِلَاعَةِ الْغَرِيبَةِ ، وَبِالتَّالِيِ اتِّهَامُهُ بِالْكَفْرِ وَالزُّنْدَقَةِ ..

.. وَحِينَ التَّعَرُّضِ لَضَعْفِ بَعْضِ الرِّوَايَاتِ فِي كُتُبِ الصَّحَاحِ مِنْ أَجْلِ إِظْهَارِ الْحَقِّ ، وَبِأَنَّهَا تُخَالِفُ دَلَالَاتِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَثَوَابَتِ الْعِلْمِ وَالْمَنْطِقِ ، حِينَ ذَلِكَ .. يَتَمُّ تَقْدِيمُ الْمَوْأَمَرَاتِ مِنْ قَبْلِ الْآخَرِينَ مِنْ أَجْلِ نَسْفِ السَّنَةِ الشَّرِيفَةِ ، كَبَدِيلٍ وَحِيدٍ لِدِرَاسَةِ الْأَحَادِيثِ دِرَاسَةً مَوْضُوعِيَّةً ، مِنْ أَجْلِ عَدَمِ بَحْثِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِمُحْتَأِ حَقِيقِيًّا ، وَيَتَمُّ تَقْدِيمُ

الباحث عن حقيقة السنّة الشريفة ، وعن حقيقة الروايات وانتمائها لسنّة الرسول ﷺ ، على أنّه كافرٌ بسنّة الرسول ﷺ ، ومتأمراً على هدمها .. والنتيجة - عند معوّقي الفكر الإسلامي - هي تعميقُ الغرقِ في مستنقعات التاريخ ، والتأكيدُ على تقديم التاريخ ورجالاته صنماً لا يجوزُ الاقترابُ منه ونقده ..

.. وهكذا يتمُّ تكريسُ الفهمِ الخاطئِ للإسلام ، وتقديمهُ معياراً حتى لدلالاتِ كتابِ الله تعالى .. وهكذا .. يبقى العربيُّ والمسلمُ يرى ما يريد ، ويسمع ما يُريد ، بعيداً عن الواقع الذي يجب أن يتفاعلَ معه ، ويبقى منفصلاً في التاريخ لا فاعلاً فيه ، ولا صانعاً لأحداثه .. وبالتالي لا تتمُّ الاستفادةُ أبداً من تجاربِ الذات ، ولا من تجاربِ التاريخ ..

.. فمن معرّكي الجملِ وصفين ، مروراً بكلِّ الفتنِ الطائفيةِ والمذهبيةِ التي تعرّضت لها الأمة ، وصولاً إلى تشرذمنا الفكريِّ الذي نعيشه ، نرى قانوناً تاريخياً واحداً لم يتغيّر ، يحكمُ الحركةَ النازمةَ للتوجّهِ الفكريِّ عندَ الأمة ..

.. فما دمنا نُغيبُ العقلَ والمنطقَ بتقدّمنا للتاريخ ورجالاته صنماً لا يجوزُ نقده ، لا يمكننا أبداً الاستفادةَ من أخطائنا فيه ، وبالتالي لا يُمكننا أبداً أن نكونَ فاعلين فيه ، ولا صانعين لأحداثه وقوانينه ..

.. وهناك معوّقٌ آخرُ هو : استخدامُ غوغاءِ العوام - بعد أن تمَّ تجهيلُهُم - كقوّةٍ ضاغطةٍ ضدَّ التجديدِ الفكريِّ ومنَّ يقومُ به ، وتعميقُ العصبيةِ المذهبيةِ والطائفيةِ بطريقةٍ سلبيةٍ ، لا ترى فيها قوّةَ الذاتِ إلا بتضعيفِ الآخرين وتكفيرِهِم وإصاقِ التّهمِ بهم ..

.. وبالتالي تحلُّ الطبائعُ والأهواءُ والعصبيةُ مكانَ أحكامِ كتابِ الله تعالى ، تحت شعارِ اتّباعِ منهجِ الله تعالى .. وبالتالي ينظرُ كلُّ إلى الآخرين من ذاتِ المنظارِ الذي نظر منه فرعونُ حينما قال : (مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) (غافر :

.. لذلك نرى أنَّ الخلافات بين مُتَّبِعِي مذاهبِ الدينِ الواحدِ وطوائفِهِ ، أعمقُ منها بين مُتَّبِعِي هذا الدينِ ومُتَّبِعِي الأديانِ الأخرى .. فتقدِّمُ المذاهبِ وأصحابِها أصناماً لا يجوزُ مسُّها ، هو عينُ الشركِ باللهِ تعالى ، وهذا يُؤدِّي إلى تفرقةِ الدينِ الواحدِ مذاهبَ وشيعاً متناحرةً .. فصنمُ كُلِّ مذهبٍ يكفُرُ به أصحابُ المذاهبِ الأخرى ، حيثُ لِكُلِّ منها صنمٌ يكفُرُ به أصحابُ ذلكِ المذهبِ ... هذه الحقيقةُ يُصوِّرُها اللهُ تعالى لنا بقوله :

(وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا كُلُّ

حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (الروم : ٣١ - ٣٢) ..

.. حينما ندركُ أنَّ مُشكَلَتنا - في مُعظَمِها - بُنيويَّةٌ تكمنُ في تغييبِ العقلِ والمنطقِ بتقدِّمِ التاريخِ منهجاً بديلاً عن كتابِ اللهِ تعالى تحت شعاراتِ بَرّاقَةِ خادعةٍ ، وأنَّ القرآنَ الكريمَ هو المعيارُ الأوَّلُ والأخيرُ لِكُلِّ ما هو ليسَ قُرْآنًا .. وحينما ندركُ أنَّنا المسؤولون عن الحالةِ الفكريَّةِ التي تعيشُها الأمةُ ، وأنَّ الحديثَ عن الخطأ هو الخطوةُ الأولى في سبيلِ الحقِّ .. وحينما ندركُ أنَّ لآخر من الحقوقِ ما لنا ، وعلينا من الواجباتِ ما عليه .. وحينما ندركُ أنَّ العدوَّ الأوَّلَ للإسلامِ ، هُوَ الفهمُ الخاطيُّ للإسلامِ .. وحينما ندركُ أنَّ اللهُ تعالى وصفَ من لَمْ يَسْتَجِبْ لأمرِهِ بالسجودِ للإنسانِ ، وصفَهُ بالشیطانِ ، وبالتالي فإنَّ مَنْ يُفتي بتكفيرِ الآخرينِ ويأمرُ بقتلِهِم ، لِمَجَرَّدِ أَتْهِمِ آخرونِ ويختلفون معه بالرأيِ والمذهبِ ، هُوَ أشدُّ من الشيطانِ ابتعاداً عما يُريدُهُ اللهُ تعالى ... حينما ندركُ ذلكَ .. نكونُ قد بدأنا الخطوةَ الأولى باتِّجاهِ الإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ ..

والله تعالى وليّ التوفيق

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net